

تحقيق

تغصّ مدينة النجف في هذه الأيام بالزوّار الذين يفدون إليها من مختلف مدن العراق، ومن عدد من الدول، لزيارة المقامات الدينية الموجودة فيها. طقوس سنوية تتكرّر عاماً بعد عام، إحياء لذكرى عاشوراء، لا تنفصل عن العلاقة المميزة التي يقيمها أبناء النجف مع أئمتهم

المقامات الدينية في العراق «ماكو» إمام... «ماكو» نجف

مهدي زراقط

تلاحق الحفاوة أينما حللت في مدينة النجف العراقية. يبرز لك النجفيون الأمر بأسباب مختلفة. مرة لأنك لبناني وهم يحبون لبنان. ومرة لأنك ضيف وهذه عادة العراقيين، إكرام الضيف. لكن ما لا يقولونه مباشرة، يظهر في فلتات ألسنتهم: لا يحظى بشرف المجيء إلى النجف إلا من وفقه أمير المؤمنين إلى ذلك أنت في النجف، أنت إذا ضيف الإمام علي بن أبي طالب.

في الطريق من الفندق إلى «الحضرة»، يؤكد سائق التاكسي على هذه «الحظوة» التي حُض بها زائر النجف. يشير إلى مقبرة وادي السلام الأكبر في العالم، والتي يوصي عدد كبير من المسلمين بأن يدفنوا فيها لكي يكونوا قريبين من الإمام ويحظوا بشفاعته يوم الحساب. يقول السائق: «حتى الذين يدفنون هنا، يصلون ببركة أمير المؤمنين. من لم يرص عنه الإمام، لن يصل ولو دفع آلاف الدولارات ليدفن».

نصل إلى المقام، الذي تغيّر كثيراً عما كان عليه قبل الحرب الأميركية على العراق. توسع صحنه وتعددت أبوابه. ويحكي النجفيون عن مشاريع إضافية لتوسيعه، يخشى منها تجار السوق الكبير الملاصق لأنها ستهدد أعمالهم. لكن رغم



كربلاء والكوفة

تعدّ الكوفة وكربلاء من المحطات الأساسية لأي زيارة دينية إلى النجف. واللافت، في الطريق من النجف إلى كربلاء، أن الطريق إلى يمين السائق تغص بالاستراحات، المسماة بالمواكب. تتفاوت هذه الاستراحات في أحجامها، وفخامتها. لكنها كلها أقيمت لخدمة زوار الإمام الحسين الذين يفدون إلى كربلاء مشياً على الأقدام من مختلف محافظات العراق، عدا أولئك القادمين من الخارج. والطريف في الأمر، أن الطريق من الجهة المقابلة تخلو من أي بناء لأن الزوّار يعودون بالسيارات.

أما في الكوفة، حيث منزل الإمام علي ومقامات عدد من أصحابه، فيشعر الزائر بأنه عاد إلى الزمن الماضي، مع استمرار الأهالي في استعادة روايات أصحاب الإمام علي. عندما وصلنا ليلاً، كان أبناء الكوفة يعدون «القيمة» لكي يوزعوها في اليوم التالي على من يرغب «بمناسبة استشهاد ميتهم الثمّار، أحد أصحاب الإمام».

الحوزة العلمية: كي لا نقف على الأطلال

الأسر الدينية لم تعد ترسل أولادها إلى الحوزة بل إلى الخارج

لذلك، يشرح: «في السابق كانت الحياة بسيطة، وكانت النظرية السائدة أن الحوزة لا تستقبل إلا الراغبين بذلك. هذا غير ممكن حالياً. لقد صارت المتطلبات كثيرة، واحتياجات الفرد كذلك، وصار متوقد الذكاء يشعر بأن ذهابه إلى كلية الطب يؤمن له كل مستلزماته فلم يأتي إلى الحوزة؟ هو متدين سواء كان طبيباً أم رجل دين. لذلك أرى أنه، للمحافظة على الحوزة، يجب أن يستقطب القيمين عليها متوقدي الذكاء من خلال تقديم التسهيلات لهم. هؤلاء لا يأتون

فمنذ تحوّلت النجف إلى مدينة علمية، مع قدوم الشيخ الطوسي إليها في العام 1057 (448 هـ)، لعبت دوراً أساسياً في تاريخ العراق السياسي والديني والاجتماعي. وكان علماءها في صدارة أي حراك، حتى أن النجفيين يفاخرون بأن «ثورة العشرين» ضد الاستعمار البريطاني كانت بقيادة العلماء الموجودين في النجف.

أما اليوم، فقد «ضعفت الحوزة العلمية لأسباب عديدة، وهي إذا لم تلتفت إلى نفسها للمحافظة على ما تأسس فيها، أرى أنها ستنتهي بمرور الزمن وتصبح مجرد ذكريات. الآن عندما نتحدث عنها، نسرده ذكريات ولا نقدم جديداً»، يقول جمال الدين الذي لا يجد أي وجه للمقارنة بين اليوم والماضي. المثال الأيسر الذي يقّمه هو عدم قدرة الحوزة على الاستقطاب. فهي لم تعد تستقبل طلاباً من مختلف الدول كما كانت الحال عليه في السابق، على الرغم من وجود الكثيرين من الراغبين في ذلك لكنهم لا يملكون الإمكانيات المادية

«عدنا إليك فعاد المجد والشرف/ وما تزال غريباً أيها النجف».

هذا البيت الشعري كتبه السيد مهدي جمال الدين، نجل الشاعر مصطفى جمال الدين، عندما عاد إلى النجف قبل عشر سنوات. يذكره في ختام حديثه «الأخبار» معه عن واقع النجف الحالي، ولا سيما وضع حوزتها العلمية، لكنه، عندما يُسأل بشكل مباشر عما إذا كان هذا هو لسان حاله اليوم، يجيب «لا، يبقى عندي أمل بأن يتعدّل الوضع بمرور الزمن ولو كان التغيير بطيئاً». تبدو مفاجئة كلمة «أمل» تخرج على لسان جمال الدين، بعد سرده للعديد من الوقائع التي لا تبشّر بمستقبل وريدي للمدينة وحوزتها. فالانحسار مترابطتان «المقام الموجود في النجف، إذا لم يكن يقربه حاضرة علمية، يصبح مقاما اعتيادياً. كربلاء التي تضم ضريح الإمام الحسين لا نقول عنها مدينة علمية. كذلك الكاظمية، ليست مثل النجف التي بقيت ألف سنة تنتج علماء وتنتج أدباء».



في مسجد الكوفة حيث كان يصلي النبي محمد (الأخبار)

قدمن ليسلمن على الإمام. اسمن لهم بالاقتراب».

يسهل تمييز الإيرانيين عن غيرهم في المقام، فهم الأكثر تأثراً بلقاء الإمام، والأكثر التصاقاً بقصص المقام. وكانهم لا يصدقون أنهم باتوا يستنصبون زيارته بعدما حرموا من الأمر لعقود. أما العراقيون فيتميزون أيضاً من خلال العلاقة الخاصة مع صاحب المكان.

أعمال التوسيع، يشهد المقام ازدحاماً كبيراً، لا سيما من قبل الإيرانيين. تتذكر كلام السائق: «قد لا تصلون إلى القفص، الإيرانيون ملتصقون به ولا يفارقونه». لذا، عندما تسمع واحدة من القيمات على المقام لهجة لبنانية من اللواتي يحاولن التقرب من القفص، تبادر إلى المساعدة. تطلب من الإيرانيات الابتعاد قليلاً، بلهجة الرجاء «إنهن غريبات وقد

التي تغد إلى النجف كل عام بمناسبة عاشوراء، إذ يصبح الشارع عبارة عن قطعة من البشر على مسافة 600 كيلومتر. «هذه الأعداد أنا لا أستثمرها كرجل دين. لا أدري كيف يمكن استثمارها لكن يجب أن تكون هناك دراسات معينة لأنني أخشى أن يكون ما يحصل مجرد رد فعل على القمع الذي تعرّض له الناس لعقود». والدليل «نلاحظ خلال عشرة أيام أن الناس موجودون في المجلس الحسيني وخلف الرادود. لكن عندما نصل إلى الصلاة في المسجد لا نجد كثيرين. هذه حالة سلبية، هناك فصل عند الناس بين قضية الصلاة والقضية الحسينية. يجب أن يعرف الناس أن الحسين لم يثر إلا لكي يقيم الصلاة».

هل يقال هذا الكلام داخل الحوزة؟ «لا يقال. وكان قضية الحوزة مرتبطة فقط بالفقه والأصول. هذه الأمور التجريدية البعيدة عن الواقع. في حين أننا بحاجة إلى حراك على الأرض».

مهدي...

برغبتهم بل يجب أن نرغبهم». وهذا سبب أساسي من الأسباب التي تقف خلف قلق جمال الدين على الحوزة. «فالقائمون عليها مقتنعون بأن على من يأتي إلى النجف، أن يفعل ذلك عن رغبة. طيب. لكن ليس أمراً لافتاً أن الأسر الدينية لم تعد ترسل أولادها إلى الحوزة بل إلى الخارج لدراسة الطب أو الهندسة؟ ليس لافتاً أن هناك عدداً من الأسر دينية قد ماتت؟».

في ظل هذا الواقع، كيف يقارب جمال الدين ما يحكى عن تنافس بين حوزتي قم والنجف؟ «هو ليس تنافساً بقدر ما هو واقع. لقد تطورت قم علمياً على حساب النجف التي غادرها طلابها الجيّدون على مدى ثلاثين عاماً بعدما فتك بهم النظام... بعد السقوط، عاد الطلاب العرب الذين درسوا في قم إلى النجف وبدأ الكلام. برأيي، تحتاج هذه الحالة إلى مزيد من العناية من الفقهاء أنفسهم. الحالة العلمية تقوم نفسها بنفسها».

أمر آخر يلفت إليه جمال الدين، هو كيفية التعامل مع الأعداد المليونية